

خالد بن حمزة مدنی

﴿يَوْجُدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَدْدٌ كَبِيرٌ مِّنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ سَخَرَتْ لِتَكُونَ أَوْلَى بِرْهَانًا لِإِثْبَاتِ وَجْهَ الدِّيَنِ الْمُوَحَّدِ الْمُأْنِدِ وَإِقَامَةِ الْمَحْجَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ خَلَالِ التَّفْسِيرِ الْعَلَمِيِّ الَّذِي لَا يَنْكِرُهُ مِنْصَفٌ وَلَا يَرْفَضُهُ عَقْلٌ رَشِيدٌ، وَثَانِيًّا هَدَايَةً لِلْعُلَمَاءِ فِي أَبْحَاثِهِمْ تَقْوِدُهُمْ إِلَى الْمَنْتَاجِ الْمُصْحِحَّةِ، وَالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ خَدْمَةً لِلْبَشَرِيَّةِ جَمِيعَهُ؛ تَنْورٌ طَرِيقَهُمْ، وَتَخْرُجَهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَعَمْلِيَّةُ الشَّرْوَقِ وَالْمَغْرُوبِ الْمُتَّيَّزِ يَعِيشُهَا الْإِنْسَانُ يَوْمًا فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ – وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ حِيثُ قَالَ الْمَوْلَى تَبَارُكَ وَتَعَالَى:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا) الشَّعْرَاءُ (27)

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّ لَقَادِرُونَ) الْمَعْارِجُ (40)

(فَبِأَيِّ عَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقِ يَنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبِ يَنِ) الْمَرْحَمَنُ (14:15).

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنِكَ بُعْدًا مَشْرِقٌ يَنْ فَبِأَيِّ سَالْقَرِينِ) الْمَذْخُرُوفُ (37)

لَا شَكَّ فِي أَنْ ذِكْرَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فِي صِيغَهُ الْمُخْتَلَفَةِ يَعْطِي بَاعِثًا لِلْبَحْثِ، وَرَغْبَةً فِي التَّفْكِيرِ، وَحَافِزًا لِلتَّعْمِقِ وَالْمَتَّأْمِلِ، إِنَّهُ مِثْلُ حِيِّ فِي بِلَاغَةِ الْمَوْلَى تَبَارُكَ وَتَعَالَى وَدِقَّةِ الْمَعْنَى. وَإِذَا تَعَمَّقْنَا فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَاتِ بَدَا لَنَا بِوضُوحٍ أَنَّهَا تَشِيرُ أَوْلَى إِلَى عَظَمَةِ الْمَخَالِقِ، وَأَنَّهُ سَبِيحَهُ وَتَعَالَى – مَوْجُودٌ حِيثُ الْمَشْرِقُ وَحِيثُ الْمَغْرِبُ بِرَبِّوْبِيَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَنُورِهِ وَهَدَايَتِهِ، وَثَانِيًّا إِلَى حَقَائِقِ كَوْنِيَّةٍ مَتَسَلِّلَةٍ لَهَا وَزَنَهَا الْعَلَمِيِّ الْمُضْخَمِ وَأَهْمِيَّتِهَا الْكَبِيرِيَّةِ فِي مَعْرِفَةِ ذُو امْبِيسِ هَذَا الْكَوْنِ الْمَنْظُورِ، سَخَرَتْ لِهَدَايَةِ الْإِنْسَانِ فِي بَحْثِهِ الْعَلَمِيِّ الْمَتَجْرِبِيِّ وَالْمَنْظُرِيِّ كَيْ لَا يَضُلَّ عَنِ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ مَصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (كَذَلِكَ يَبْيَنُ الْمَلِئُ لِكُمْ ءَايَاتِهِ لِعَلَّكُمْ تَتَهَذَّلُونَ) الْأَلْعَمْرَانُ (103).

فِي سُورَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فِي صِيغَهُ الْمُفَرَّدِ، وَهُذَا مَا نَلَاحِظُهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَأَيْنَمَا كَنَا وَحِيَثُما وَجَدْنَا رَأِيَّنَا لِلشَّمْسِ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا، وَبِمَا أَنَّ الْأَرْضَ تَدْوِرُ حَوْلَ نَفْسِهَا وَحَوْلَ الشَّمْسِ دُونَ تَوْقُفٍ فَهَذَا الْمَشْرِقُ وَمَشَارِقُ وَمَغَارِبُ مَتَّالِيَّةٍ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَهَذَا مَا نَفْهَمْهُ مِنْ خَلَالِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي صِيغَهُ الْجَمِيعِ فِي سُورَةِ الْمَعْارِجِ. لَكِنَّ الْمَسْؤَلُ الْمُطَرَّوْجُ هُوَ: مَا هُوَ الْفَهْمُ الْمُصْبِحُ لِهُذَا الْمَذْكُورِ الَّذِي جَاءَ فِي صِيغَهُ الْمُتَشَنِّي فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ؟

لَقَدْ فَسَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ هَذِهِ الْآيَةَ بِمَشْرِقِي وَمَغْرِبِي الشَّمْسِ فِي الْمَشَاءِ وَالْمَصِيفِ، مَهْتَدِينَ فِي ذَلِكَ بِمَا يَقُعُ مِنْ تَغْيِيرٍ مُسْتَمِرٍ فِي زَوْيَّةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ الْمَنْتَاجِ عَنْ دُورَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ، وَمَيْلِ مَحْوَرِ دُورَانِهَا عَنِ الْمَحْوَرِ الْأَرْسَى. قَدْ يَبْدُو هَذَا صَحِيحًا فِي الْمَرْأَةِ

الأولى، لكن بسبب ميل المحور الذي يتزايد ويتناقص على مر السنة ليفرز لنا الفصول الأربع - نرى كذلك على الأرض مشارق ومغارب متعددة بعده أيام السنة، وليس مشرقيين ومغاربيين اثنين فقط، ومن هنا نرى أن عدم التوافق الكلي الذي أفرزه هذا التفسير يدعونا إلى المنظر من جديد والتفكير في الآية الكريمة لايجاد المفهوم الصحيح، فالقرآن يفسر بالقرآن، ثم بالسنة الصحيحة، وبآثار العلم المكشوف.

المفسير العلمي الحالى:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا). الشعراة (27) لقد جاء ذكر الشروق والمغرب في هذه السورة الكريمة في صيغة المفرد، وهذه إشارة إلى حالة خاصة ثابتة في مكان ما وزمان ما. ففي كل لحظة تشرق الشمس على بقعة ما وتغرب عن بقعة أخرى، وكل الناس الموجودين في هذه البقع سيعيشون في وقت واحد لحظة الشروق والمغرب، وهذا ما نقرأه في الآية الكريمة حيث قرن المشرق مباشرة بالمغرب، ولم يكن قوله - عز وجل - رب المشرق ورب المغرب. إذن إذا تصورنا هذه الحالة الخاصة - وجود حالة شرق وغرب في كل لحظة - وعممناها على كل بقع الأرض سنجد أن شكل هذه الأخيرة كروي، مما يدل على أن صيغة المفرد هاته استعملت إشارة إلى شكل الأرض فقط.

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) [المعارج (40)]

في هذه السورة الكريمة جاءت صيغة الجمع إشارة على وجود مستمر لمشارق ومغارب متعددة على هذه الأرض. وبما أن عملية الشروق والمغرب مستمرة عبر المكان والزمان، فهذا يدل بوضوح تمامأً على أن شكل الأرض كروي، وثانيًا على أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس.

ومن هنا نستنتج أن صيغة الجمع هاته استعملت لتدل الإنسان على شكل الأرض الكروي، وحركتها حول نفسها وحول الشمس. لكننا بهذه الصيغة ولما الصيغة المفردة، لم تحدد بالنسبة للكون اتجاه دوران الأرض، سوى ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة ما يدل على أن الشمس تطلع من مشرق الأرض: (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) البقرة (257)، (رب المشرقين ورب المغاربيين) المرحمن (15) في هذه الآية الكريمة ذكر المشرق والمغرب في صيغة المثنى. ما سبب ذلك؟ إن التعبير القرآني جميل، وهذه الآية سيقت في صيغة المثنى لتكون الأنسب في سورة المرحمن حيث الحديث كله يذكر في هذه الصيغة. إنها الأنسب، هذا صحيح، لكننا شئنا أن من ورائها حقيقة كونية. وهذا ما أريد في إطار التفسير العلمي إظهاره. قبل ذلك يجب أولاً أن نلاحظ أن كلمتي المشرقيين والمغاربيين لم تُقرنَا بمباشرة كما كان الشأن في الآيات المسالفة المذكرة حيث كان قوله - عز وجل: (رب المشرقين ورب المغاربيين)

بتكرار كلمة (رب) وهذا يدل على أن هناك مشرقيين ومغاربيين مختلفين تماماً في الزمان وفي المكان كذلك. كيف هذا؟

حقائق عملية:

المجرة: تقع مجرة وعثنا الشمسيّة في مجرة درب التبانة، أو المطريق اللبناني *yaW liM kliy* التي على قرص هائل من النجوم والسحب من الغاز والمغبار الكوني. وحول هذا القرص توجد الهالة الكروية المكونة من تجمعات النجوم والمذنبات والنيازك والكواكب والثقوب السوداء والثقوب البيضاء وما تأثر له من المذرات، وشكل المجرة المخارجي حلزوني إذا نظر من أعلى، وعدسي مسطح إذا نظر إليه من الجنب.

الشمس: ذكرت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) *NASA* نقلًا عن الموسوعة الأمريكية، أن الشمس ومجمّعاتها تقع في المثلث المخارجي لشعاع قرص المجرة، وتجري الشمس حول مركز المجرة بسرعة 250 كيلومترًا في الثانية، وتستغرق حوالي 250 مليون سنة لتكمّل دورة كاملة، وقد أكملت 18 دورة خلال عمرها البالغ 4.8 مليون سنة. كما أن الشمس تدور بنفس دوران الأرض (دوران [كارنجلتون R.Carrington](#)).

الأرض: كما جاء في نفس الموسوعة أن للأرض مساحة 465 متراً مترًا في الثانية في المنطقة الاستوائية. يميل محور الأرض الموهي على المحور العمودي بزاوية تغير من 23.41 درجة إلى 23.5 درجة في دورة تقدر مدتها بـ 26 ألف عام. أما الحركة الأخرى فتحول الشمس وتتدوم يوماً بسرعة متوسطة تقارب 30 كيلومترًا في الثانية. كما أن هذه الحركة تقع في مدار شبه دائري غير ثابت حيث يتغير ويتمتد قليلاً ليصبح إهليجيًا *Euclidian* ثم يعود إلى وضعه شبه الدائري في دورة مدتها 100 ألف عام. وبسبب هندسة مدار الأرض حول نفسها وحول الشمس تطرأ عدة تغييرات منها مكان الشروق والغروب.

دوران الشمس حول مركز المجرة والأرض حول نفسها وحول الشمس

لقد أظهرت إِذَنِ الافتراضات الفلكية أن حركة الأرض المحورية *Spinaxis* تكون من غرب الأرض إلى شرقها. وهذا يعني وجود شرق وغرب عند عملية بناء الكون وتتوسعه بعد عملية المفتاح أو الانفجار العظيم كما يسميه العلماء *له* وهذه هي الحالة التي ذراها حالياً. أما الحالة الأخرى فهي التي سيراها الإنسان قبل قيام الساعة - اقرأ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنْ زَلَّةَ السَّاعَةِ شَرِيعَةٌ لِّلْظَّيْمِ وَمَتَرُونَ هَا تَذَلُّلُ كُلِّ مَرْضِعٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ هَا وَتَرَى النَّاسُ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الْمَلِكِ شَدِيدٌ) *(الحج 21)* - أي عند طي السماء وإنكمash المكون المنتظر *Crunch Big* حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض مصداقاً لقول الرسول - عليه الصلاة والسلام: (لَا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها)، نحن المسلمين ذرنا من خلال ما جاء في كثير من الآيات الكونية والسنّة الصحيحة حقيقة الكون في المستقبل، ونستطيع أن نزود المعلم البشري بمثل هذه المعلومات الهامة الكونية لاستغلالها والمعتبر عنها مصداقاً لقوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ عَلَيْهِ فَتَعْرِفُونَ) المنمل *(93)*.

تصور طلوع الشمس من مغرب الأرض

بعد استقرار الشمس المقدر في المكان والزمان، كما جاء في قوله - عز وجل: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرِيلًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ) [آل عَلِيٍّ] يس (35). يمكن تصوّر طلوعها من مغرب الأرض - دون أن ندخل في التعريف عن الكيفية - بتغيير اتجاه دوران الأرض كأن يكون معاكساً لدوران كارنيجيتون [arrington C.R.]

ويكذا سيكون في المجموع - خلال عملية توسيع المكون وانكماشه - اتجاه ان مختلfan لدوران الأرض: الأول هو الذي نعيشه ونراه حيث تدور الأرض من غربها إلى شرقها لتطلع الشمس من مشرق الأرض، والثاني هو الذي يراه الإنسان قبل قيام المساحة حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض. إنها عملياتان للشروق والمغروب لا تتمان في وقت واحد، ولمَّا جاء قوله تعالى: (رَبُ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُ الْمَغْرِبِينَ) على أن المخالق واحد أحد هو الإله بربوبيته وسلطانه وتوجيهه خلال عملية التوسيع والانكماش، ليبقى التعبير واحداً، فحيثما وجد الشروق والمغروب هناك قدرة الله ودقة صنعه.

بعد المشهد

إن هاتين الحالتين للشروع والغروب مختلفتان تماماً ويفصل بينهما بعد ثابت في الزمان والمكان: فمقدار الزمان لا يعلمه إلّا الله - سبحانه - هو وجده عنده علم المساعة لا يجلّها لأحد، أما المكان فيمكن أن نقدر بعده بنصف محيط الكرة الأرضية أي حوالي 20 ألف كيلومتر وهو بعد ثابت، مهتمين في ذلك بقوله تبارك وتعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُنَا قَالَ يَا لَيْتَ بِيَنِي وَبِيْنِي بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ فَبِئْسَ الْقَرْبَانُ). المزخرف (37).

نحو نعرف أن الإنسان كائن مرتبط بالأرض، ونفس الارتباط سيكون بقرينه بدون شك. وبما أن المقربين ظل صاحبه يود هذا الأخير لو كان بينهما أثناء حياتهما الدنيا أقصى مسافة ثابتة موجودة على وجه الأرض، أي مسافة بُعد المشرقيين التي تعادل المسافة بين المشرق والمغرب الحالي والتي تقدر بنصف محيط الكرة الأرضية في منطقتها الاستوائية. ومن الملاحظ أن هذا البُعد ثابت في المكان والزمان بعكس المُبعد الذي يكون بين مشرقي فصل الشتاء وفصل الصيف الناتج عن التغيرات المتعددة المتمتالية التي تسببها هندسة مدارات الأرض حول نفسها وحول الشمس. كما نعرف كذلك أنه ما من آية في القرآن الكريم تحدثت عن أمر من أمر الدنيا أو الآخرة إلا وقد استوعبت ونصف هذا الأمر بأحسن عبارة وأدقها. وبما أن الأمر الذي تعرضت له الآيات السالفة الذكر يدخل في نطاق البحث العلمي فلا نشك أن دقة العبارة القرآنية سوف تستوعب ما بلغه العلم البشري من حقائق كونية.

وَكَيْفَ لَا وَالَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ الْخَالِقُ - عَزُوجَلٌ - الْمُخْبِرُ الْعَلِيمُ بِالسَّرِّ وَمَا يَخْفِي فِي هَذَا الْكَوْنِ. لَقَدْ فَسَرَنَا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: (فَبِأَيِّ
عَالَمٍ أَعْرَبْتُكُمْ تَكَذِّبُانِ) * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَرَبُّ الْمَغْرِبِيْنِ.
الْمَرْحَمُونَ (14، 15) بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُهَتَّدِينَ فِي ذَلِكَ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:
حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بِي نِي وَبِيْنِكَ بَعْدَ الْمَشْرِقِيْنِ فَبِئْسَ الْقَرَيْنُ.
الْمَزْخُرْفُ (37). وَبِالْمَحْدِيثِ النَّبَوِيِّ الْمُشْرِيفِ:
لَا تَقْرُونَ السَّاعَةَ حَتَّى تَطَّلَّعَ الْحَسْمُونَ مِنْ مَغْرِبِهَا.

ومن خلال ما أتاح لنا التفسير العلمي - ذرى أن هناك مشرقيين مختلفين في المكان والزمان: الأول هو الذي ذراه آن المذاق عن عملية المفتق أو الانفجار العظيم وبناء الكون وتوسيعه حيث تدور الأرض من غربها إلى شرقها لتطلع الشمس من مشرق الأرض، والآخر هو الذي سيراه الإنسان قبل قيام المساعة أي عند بداية انكماش الكون وعملية طي السماء حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض. والله أعلم ، وإنما الموفق من وفقه الله.